

يقظتها هائلة مروعة . وكان هذا البعض أول من ذهب ضحية هذا الحلم
فمسي ان تكون هذه آخر صاعقة تنقض على البلاد فيعقبها شروق الشمس .
وتعود مصر الى الرخاء والصفاء



محادثة شبح^(١)

عن اصل الحروف الهجائية

كنت اكتب منذ زمان طويل في سكون الليل وكان المنور
(غطاء القنديل) يرسل على المنضدة ضوء القنديل ويبقى الظلام منتشرًا
على الكتب الموضوعه على طبقات تعلو الواحدة منها الاخرى في جهات
الغرفة الاربع . وكانت النار الموشكة أن تنطق تبداً خلال الرماد كأنها
شدرات من الياقوت . وكان دخان التبغ المهبج يمتزج بهواء الغرفة ويزيده
تكثفًا وامامي لفافة من التبغ في قده على كومة من الرماد يرتفع دخانها
اللطيف الازرق ارتفاعاً عمودياً . وكان شكل الظلمة في تلك الغرفة سرياً
لأن الجالس فيها يشعر شعوراً مبهماً بروح تلك الكتب الملقاة في موضعها
وقد سكن قلبي بين انامي كأن النعاس قد عبث باعطافه فجعلت اعمل
الروية في امور قديمة العهد واذا بشخص غريب برز من دخان لفافتي
كما يبرز من دخان العشب السحري . وكان شعره متجعداً ، وعيناه

(١) من وضع أناتول فرانس الكاتب الفرنسي المشهور وتعريب الياس
أفندي طنوس الحويك الكاتب المجيد

نجلاوين براقنتين، وانفه اقنى، وشفته غليظتين، ولحيته سوداء متجمدة على
الزبي الأشوري، ولونه نحاسياً فاتحاً، وقد طبعت على محياه علامة الدهاء
والميل مع الهوى ميلاً عنيفاً، ودلّ شكل جسمه الربة القامة ولباسه
الفاخر على انه من اولئك الاسيويين الذين كان الاغريقيون يطلقون
عليهم اسم بربر. وكان لابساً على رأسه قبعة زرقاء مصنوعة على شكل
سمكة ترصعها النجوم، ومرتدياً ثوباً ارجوانياً موشىً بصور الحيوانات
وحاملاً باحدى يديه مجدافاً وبالاخرى ادراجاً. فلم اضطرب عند رؤيته
لاعتقادي ان ظهور الاشباح العديدة في المكاتب أمر طبيعي.. ألا
تظهر اشباح الموتى في العلامات التي تحفظ ذكرها؟ ودعوت الغريب
الى القعود فنبذ دعوتي وقال :

ارجو منك أن تدعني وشأني ولا تعتبرني حاضراً في هذا المكان
فلقد اتيتك لأنظر ما تكتبه على هذا الورق العاطل لأنني أسرُّ بذلك .
واعلم ان الافكار التي نعبّر عنها عليه لا تهمني البتة وانما يهمني جداً
منظر الحروف التي ترقها عليه فاننا اعرفها وان يكن قد درج على
استعمالها ثمانية وعشرون قرناً وطراً عليها تغيرٌ ذوبال . وانا اعرف هذه
الباء التي كانت في ايامي تدعى « بيت » ومعناها بيت او منزل وهذه اللام
التي كنا نسميها « لامد » لمشابهة شكلها لشكل الحمة . وهذه الجيم مشتقة
من الحرف الذي كان يقال له « جمل » في حروفنا الهجائية ومعناه عنق
البعير . وهذه الالف مشتقة من الفنا وهي على شكل رأس الثور . واما
الذال التي اشاهدها امامي فانها على مثال « دالت » المأخوذة عنها تمثل تماماً

شكل مدخلٍ مثلث الزوايا نخيمة مضروبة في رمال الصحراء ان انت لم تجعل محيط تلك العلامة الدالة على عيشة البدو القديمة مستديراً برسمك خطأ منحنياً . لقد غيرتم «الدالث» وسائر حروف الهجائية ولكنني لا انهي عليكم باللائمة على ذلك لانكم لم تفعلوه الاً حباً بالايجاز والاسراع لاعتباركم قيمة الوقت فليس الوقت سوى التبر والعاج وريش النعام . ان الحياة قصيرة ولذلك يقضى على المرء أن يزاول التجارة ويركب مركب الاسفار دون أن يضع دقيقة واحدة ليتسنى له أن يصيب الثروة ويصل الى حد الشيخوخة وهو رافع في بحبوحة الهناء ونائل نصيبه من الاحترام فقلت له : يا سيدي بين لي عند رؤيتي اياك وسماعي كلامك انك من اولئك الفينيقين القدماء

فاكتفى بان يجاوبني قائلاً : انا قدموس او شبح قدموس فقلت له : بناءً عليه انك لست موجوداً وجوداً حقيقياً فانت اختلاقي ورمزي وان تصديق كل ما قاله الاغريقيون عنك يعدُّ من رابع المستحيلات فهم يروون انك بطشت على عدوة ينبوع آريس بتنين كان يقذف النيران من شذقيه، وانك قلمت اسنان ذلك الوحش وغرستها في الارض فتحوّلت بشراً . ان هذه الرواية من باب الاساطير وانت يا سيدي شخص مختلف

من المحتمل أن اكون قد صرت كما تقول مع تعاقب الاجيال وان يكون اولئك الاولاد الكبار الذين تسميهم اغريقيين قد قرنوا بذكوري روايات ملفقة . اني اظن ذلك الأمر ولكنني لا اكثر له ولا اهتم بما

اعتقد بي الناس بعد موتي . فمخاوفي وآمالي لم تكن لتمتدَّ الى ما وراء
هذه الحياة التي يتنعم بها الناس على الارض والتي افهمها الآن دون سواها ،
ولا اسمي حياة الطواف كشبح في غبار المكاتب ، والظهور بشكل مبهم
للمسيو ارنست رينان او للمسيو فيليب برجه فخالة الشبكية هذه تزيد
كآبتي لأنني قضيت في الدنيا حياة سداها النشاط ولحمتها تميم الواجبات
ولم اكن ألهو بغرس اسنان الافاعي في الحقول البيوسيانية اللهم ما لم
تكن تلك الاسنان عبارة عن البغض والحسد اللذين غرسها غناي وقوتي
في نفس رعاة سيترون . وقد انفقت ايامي في الاسفار ومخرت في جميع
اللجج وانجعت جميع الامصار وانا راكب متن سفيني السوداء الموضوع
على جوجونها مسخ أحمر هائل يحرس كنوزي ويرصد الكبيرات السبع
المجولات في الفضاء بزورقهن اللامع ويهديني بتلك النجمة الثابتة التي كان
الاغريقيون يسمونها الفينيقية اكراماً لي . وقد انطلقت للآتيان بالذهب
من «الكشيد» والفولاذ من «الشاليب» والآلي من «اوفير» والفضة
من «طارطس» واخذت من «البيتيك» الحديد والرصاص وسلفور الزئبق
والمسل والشمع والزفت واجتزت حدود الدنيا وتوغلت في غمام المحيط
حتى انتهيت الى جزيرة البريطانيين القائمة وعدت منها شيخاً بيض
الدهر لمتة ومعى مقاديرة وفيرة من القصدير الذي ابتاعه مني المضيرون
واليونانيون والايطاليون بمبالغ من النضار توازي زنته زنتها . وكان البحر
المتوسط في ذلك الحين يعتبر بحيرة لي فشيدت على سواحله المهجورة
مئات من المحلات التجارية . ولم تكن «طيبة» تلك المدينة المشهورة سوى

منيع أخزن فيه ما كان لديّ من الذهب وقد لقيت في بلاد اليونان قومًا
متسكمين في دياجي الهمجية ، مسلحين بقرون الوعل والحجارة المحددة
فأعطيتهم النحاس وكان انهم عرفوا بفضل جميع الفنون
وكان يظهر في عينيه وفي كلامه قسوة جارحة فأجبتة بكلام خالٍ
من الحب :

انك كنت تاجرًا موصوفًا بالنشاط والذكاء ولكنك لم تكن تحجم
عن اتيان المنكر وكنت تتصرف عند سئوح الفرصة تصرف قرصان
حقيقي . وحين كنت تنزل الى البر في ساحل من سواحل اليونان او في
جزيرة من الجزائر كنت تعمد الى بسط ادوات الزينة والمنسوجات
الثمينة على اليابسة ، وحين كانت فتيات تلك الانحاء يجذبن انجذابًا
لا يقوين على دفعه ويأتين وحدهن بغير معرفة والديهن لرؤية تلك
السلع كأن بحارتك يخطفون اولئك العذارى اللواتي كن على غير جدوى
يطبقن الفضاء باصوات الاستغاثة ويولون منتحبات ويلقونهن مكتوفات
مذعورات في قعر سفائنك واكلين حراستهن الى ذلك المسخ الاحمر .
ألم تسب أنت وذووك « إيو » الصبية ابنة ايناخوس الملك لتبيعوها
في مصر ؟

— من المحتمل ان يكون هذا الامر قد جرى فان ايناخوس الملك
هذا كان زعيم قبيلة صغيرة من البربر وكانت ابنته بيضاء البشرة ذات
لطف ورواء ولا يخفى ان العلاقات بين القوم الهائمين على وجوههم في
مجاهل الهمجية، والقوم المستنيرين بمشكاة التمدن هي عينها في كل زمان

— حسناً قلت ولكن الفينيقيين ذويك قد ارتكبوا في العالم سرقات لم يسمع بمثلا فانهم لم يحجموا عن سرقة الدياميس ونهب المدافن المصرية ليزينوا جبانات « جليل » بما يعثرون عليه فيها

— بعيشك يا سيدي قل لي أمثلك يعنف انساناً أكل الدهر عليه وشرب كان « صوفوكل » يسميه قدموس العتيق ؟ لقد نسيت اني اكبر منك بثمانية وعشرين قرناً قبل ان يمضي علينا اكثر من خمس دقائق ونحن نتحدث في غرفتك . فاعلم يا سيدي العزيز اني رجل كنعاني عتيق فلا ينبغي لك أن تشدد عليّ النكير من جراء بعض صنابير من الموميات وبعض فتيات همجيات مسبيات من مصر او من بلاد اليونان وقد كان الأشبه بك أن تعجب بقوة ذكائي ومحاسن صناعتي . لقد حدثتك عن سفائي واستطيع أن اريك قوافلي شاخصةً الى اليمن للإتيان بالبخور والمرّ والى حاران للمجىء بالحجارة الكريمة والبهارات والى الحبشة لطلب العاج والابنوس ، ولم تقف همتي عند هذا الحد من المتاجرة والمقايسة بل كنت صاحب معامل معروفاً بالخنكة في زمن كان في اثنائه العالم المحقق بي غارقاً في لجة الهمجية . وكنت بصفة كوني من علماء المعادن والصبانين والزجاجين والصاغة استعين بما أوتيته من الدهاء على مزاوله فتون النار هذه الغريبة الى حدٍ يجعل المرء يخالها سحرية . انظر الى الكؤوس التي نقشتها وتعجب مما للجوهري الكنعاني العتيق من الذوق السليم . ولم تكن خبرتي في المسائل الزراعية مما يستهان به فاني صيرت تلك الارض الضيقة المحصورة بين لبنان والبحر جنة خضراء ولا تزال آثار الاحواض

التي بنيتها فيها قائمة حتى يومنا هذا . وقد قال احد علمائكم : « ان الكنعاني دون سواء يقدر أن يبنى معاصر خالدة » اعرف قدموس العتيق حق المعرفة واعلم اني انتقلت بشعوب البحر المتوسط من العصر الحجري الى العصر النحاسي وقد علمت الاغريقين مبادئ جميع الفنون واعطيتهم بدلاً من الخنطة والخمرة وجلود الحيوانات التي جاؤوني بها كوؤساً يتعاق عليها الحمام ودمى من الخزف ومنذ ذلك الحين نشطوا الى نسخها وترتيبها على ذوقهم . وفي آخر الأمر اعطيتهم حروفاً هجائية لم يقدروا بدونها أن يحددوا ويحصروا افكارهم التي تخب لبك . هذا ما فعله قدموس العتيق وهو لم يفعله حباً بالجنس البشري او رغبة في مجدٍ زائل بل حباً بالكسب والاستفادة الحقيقية الممكن لسهما باليد . وقد فعله املاً بحشد الثروة وطمعاً بشرب الخمر في شيخوخته في كوؤس من الذهب على مائدة من الفضة بين غانيات بيض الوجوه يرقصن رقصاً يثير الشهوات من مرابضها ويعزفن على القيثارة عزفاً يرنح المعاطف لأن قدموس العتيق لا يؤمن بالصالح ولا بالفضيلة وهو يدري ان البشر اشرار وان الآلهة وهم أقوى من البشر شرٌ منهم . وهو يخافهم ويبذل المجهود لتسكين غضبهم بالقرايين الدموية ولا يحبهم ابداً لأن الأناية متسلطة عليه كل التسلط . وهاءنذا اصف لك ذاتي على ما انا عليه في واقع الحال واعتقد اني لو لم اجر وراء ملاذ الحواس القوية ما كنت قد سعت لجمع المال واخترعت الفنون التي لا تزالون تتعمون بها في هذا العصر . وحيث لم يكن لك يا سيدي العزيز عقلٌ كافٍ تستطيع به أن تصير تاجراً وحيث

انك قد اخترت مزاولة الكتابة سالكاً فيها مسلك الاغريقين ووجب عليك أن تحترمني احترامك للآلهة لأن لي الفضل عليك بالحروف الهجائية التي تستعين بها على الكتابة ، فانا مخترعها ولا يخفى عليك اني لم ابتدعها الا لترويج تجارتي دون أن ييدر الى وهمي ما سيكون لتلك الحروف من الشأن في العالم الادبي . وكان يعوزني لوضع تلك العلامات اسلوب بسيط وقريب المتناول وودت من صميم الفؤاد لو كنت استطيع اقتباسه من جيراتي الذين تعودت ان آخذ عنهم كل ما لا تخفى لأن مسألة الاصول لم تكن عندي أمراً يمتدُّ به . فان لغتي هي لغة الساميين ونحيت تارة بابلي وتارة مصري ولو كانت ثمت خطٌ جميل لكنت اكتفيت مؤونة الاختراع في هذا الموضوع ولكن لم يكن يسدُّ مسدَّ حاجاتي الخط الهيروغليفي المستعمل عند الشعوب التي تسمونها الآن حطية ولا تعرفونها ولا الخط المقدس عند المصريين فان ذينك الخطين كانا على جانب عظيم من التعقيد وكانت كتابتهما بطيئة جداً وهما من الخطوط التي يفضل نقشها على جدران الهياكل والرموس على رقما على ادراج التاجر . فالخط المصري وان يكن مختصراً ومنحنياً قد بقي له من مثاله الاصيلي شيء من الثقل والارتباك والتردد لان الاسلوب يحملته كان فاسداً . وبقيت الهيروغلفية المختزلة هيروغلفية اي مبهمه ابهاماً هائلاً . وأنت تدري كيف كان المصريون يخلطون في الهيروغلفية المطولة والهيروغلفية المختصرة وبين العلامات المعبرة عن الافكار والعلامات المعبرة عن الاصوات . وأنا بفضل دهائي اخترت اثنتين وعشرين علامة من تلك العلامات

الكثيرة العدد وصنعت منها حروف الهجائية الاثني والعشرين وهي حروف اي علامات يقابل كل منها صوتاً مفرداً وتنشأ عن مجموعها الداني المنال واسطة لرسم جميع الاصوات رسماً مدققاً . ألم يكن عملي هذا معدوداً من باب البراعة والتفنن ؟

— أجل ان عمك كان ولا مرء معدوداً من باب البراعة والتفنن اكثر مما تتوهمه فيقضى علينا والحالة هذه ان تقدم لك هدية كبيرة القيمة لأنه بغير الحروف الهجائية لا يوجد علامات مضبوطة تعبر عن الكلام ولا انشاء ولا تعبير عن أفكار دقيقة ولا تجريد ولا فلسفة سامية المعاني . فالتصوير بان « پاسكال » كتب سفره المعنون باسم (بروفنسيال) بحروف مسماوية لا يقل استهجاناً عن التصوير بان تمثال « زوس الاولي » نحتته فحمة . فالحروف الهجائية الفينيقية التي اخترعت لاجل مسك الدفاتر في التجارة اصبحت في المعمورة كلها اداة للفكر تامة لا يستغنى عنها وان تاريخ ما طرأ عليها من التغيير مرتبط ارتباطاً متيناً بتاريخ العقل البشري وتقدمه وان اختراعك وان لم يكن كاملاً يعتبر آية في الجمال وعظيم القيمة فانت لم تخطر على بالك الحروف الصوتية التي اخترعها الاغريقيون البارعون المتفننون الذين قسم لهم في هذا العالم ان يبلغوا بكل شيء الى درجة الكمال

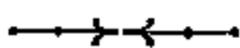
— اني اقتبست عادة سيئة وهي ان اخلط الحروف الصوتية بالحروف الساكنة . ألم تلاحظ هذا المساء ان قدموس العتيق يتكلم قليلاً من حلقه ؟

— اني اصفح له عن هذا الأمر واغضي الطرف ايضاً عن سبيه « إيو »

العذراء لأن ايناخوس والدها كان زعيماً للبربر حاملاً صولجاناً من قرن
الوعل نحتتُ مديتهُ من الصوان واتعافل عن تعليمه البيوسيانين المساكين
الفضلاء الرقص الخلاعي الذي كانت الباكانات يزاولنهُ وتجاوز عن كل
هفوة ارتكبها لأنه جاد على اليونان والعالم طراً باثمت تعويذة أعني بها
الحروف الهجائية الفينيقية الاثنين والعشرين وقد اشتقت من هذه
الحروف الاثنين والعشرين جميع الحروف الهجائية في الدنيا . ولا يجري
في وهم الناس فكرٌ على سطح البسيطة الاً وتحدده وتحفظه . فمن حروفك
الهجائية يا قدموس الفاضل انبتق الخطان الاغريقي والاطيالي اللذان
خرجت منهما جميع الخطوط الاوروباوية . ومن حروفك الهجائية ايضاً
نشأت جميع الخطوط السامية من الارمنية والعبرانية الى السريانية
والعربية وان الحروف الهجائية الفينيقية نفسها امٌ للحروف الحميرية
والحبشية وسائر الحروف الهجائية في اسيا الوسطى كالزند والبهلني
والحروف الهجائية الهندية المشتقة منها اللغة الدفاناغارية وجميع الحروف
الهجائية في اسيا الجنوبية . فسقياً له من غنى طائل ورعيأ له من نجاح عام
فلا يوجد الآن في جميع اصقاع المعمورة خطٌ واحد غير مشتق من الخط
القدموسي . وكل من يكتب كلمةً واحدة في هذه الدنيا يعترف بفضل
التجار الكنعانيين الأقدمين . وهذا الفكر يجعلني اسدي لك اوفر الشكر
والاحترام يا حضرة السيد قدموس ولا ادري كيف اقدر هذه النعمة
حق قدرها بقضائك ساعة من هذا الليل في غرفتي يا بل قدموس
يا مخترع الحروف الهجائية

— يا سيدي العزيز اعتدل في اظهار حماستك واعلم اني مبتهج كل
الابتهاج باختراعي هذا الطفيف . فليس في زيارتي لك ما يجعلك تفتخر
متباهياً لأنني صرت أتهرم تهراً يجب الي الموت منذ الحين الذي أصبحت
فيه شجعاً وهمياً ولم أعد أبيع قصديراً ولا تبراً ولا عاجاً واضطرت على
هذه الارض التي يطأ فيها المسيوستاني عن بعد مواطي قدي الى
التحدث من حين الى آخر مع بعض العلماء او الفضوليين الذين يهمهم
أمري . والآن يخيل الي اني سامع صياح الديك فاودعك وانصح لك
بان تسعى لحشد الثروة لأن الخير الوحيد في هذا العالم ملاكة الغنى والقوة
قال هذا الكلام وتوارى عن نظري وكانت ناري قد نهدت وبدأت
أشعر ببرودة الليل وصداع أليم

الباس الحويك



شيء عن الفن

لقد عرف الانسان الفنون قبل ان عرف العلوم ، لأن مخيلته
اشتغلت قبل تنبه افكاره . الخيلة ضيف تائه على الارض وهي اقوى القوى
الادبية . حركتها لا تبطل ابداً في الحياة ، بل هي كالقلب تشتغل دائماً
وعملها مستمر متواصل في النوم وفي اليقظة . فيها تحفظ تذكارات الماضي
وآثار ما تنقله اليها الحواس من مناظر واصوات وانغام وروائح وتأثيرات ،
ومن مزيج هذه التذكارات والآثار تتكون اصول الفنون ، فيأتي التصوير
والابتكار عاملاً في توسيعها ، وزيادة فروعها واتقان كالاتها